الصداقة الصينية العربية

مساهمات المسلمين الصينيين فى التاريخ (٢)

هذا النصف الثانى من مقال الاستاذ جمال الدين باى شو يمى العالم الاسلامى الصينى المشهور ، وقد نشر النصف الاول من المقال فى العدد السابق .

– المحرر

مساهمات فى مجالات الاقتصاد والسياسة

قدم المسلمون الصينيون مساهمات تاريخية فى مجالات الاقتصاد والسياسة ايضا . وظلت القوميات التى تعتنق الدين الاسلامى امثال ويغور وهوى وقازاق ودونغشيانغ وخلخاس وسالا وتاجيك واوزبيك والتاتار وباوآن تشارك قوميات هان ومنغوليا والتبت والاقليات القومية الاخرى فى تبادل التجارب الانتاجية وتحسين او تجديد الآلات الزراعية واستصلاح الاراضى البور وانشاء مشاريع الرى وتطوير الزراعة وتربية المواشى فى مناطق شمال الصين الغربى .

وقد قام المسلمون باستصلاح الاراضى البور فى شمال جبال تيانشان وجنوبها ومنطقة ممر غرب النهر الاصفر وبعض الاجزاء فى مقاطعات نينغشيا وقانسو وشنشى . ويعرف من المدونات التاريخية ان المسلمين الصينيين الذين كانوا يباشرون بناء مشاريع الرى نجحوا فى استصلاح اكثر من ٢٠٠ر٠٠٠ مو من الاراضى البور فى مقاطعة يونان وذلك فى فترة ستة اعوام من ١٢٧٤ الى ١٢٧٩ فقط . ومعروف ان شينجيانغ كانت اكثر المناطق جفافا فى الصين . ومن اجل تغيير هذا الوضع ظل المسلمون المحليون يشاركون ابناء القوميات الاخرى فى النهوض ببناء مشاريع الرى . وقد تمخضت جهودهم المضنية المريرة عن بناء شبكة للرى فى اواخر القرن التاسع عشر تعم شينجيانغ بشطريها الشمالى والجنوبى . وقد اشارت المدونات التاريخية المحلية الى ان شبكة الرى كانت تفتخر بـ ٩٤٤ قناة رئيسية و٣٣٠٣ قنوات فرعية من شأنها رى مساحة تقدر بـ ١١ر١٩٠ر٠٠٠ مو من الاراضى الزراعية . وبعد التحرير شهدت شينجيانغ وضعا لم يكن له نظير فى الرى اذ انجز فيها بناء مئات انظمة الرى وخزانات المياه من مختلف الانماط وطورت منشآت الرى بواسطة الآبار الارتوازية واعيد بناء المناطق المروية بآبار "كاريز" بجانب وضع بعض الانهار تحت السيطرة بصورة اولية . اما شبكة القنوات التى تتلوى فى نينغشيا من اقصاها الى اقصاها فقد ظهرت الى حيز الوجود بفضل جهود ابناء قومية هان فى بادئ الامر ، الا ان ابناء قومية هوى شاركوهم فى تطويرها فيما بعد .

اما المسلمون القازاقيون الذين ظلوا يمتهنون تربية المواشى جيلا بعد جيل فقد ساهموا فى تطوير تربية المواشى وصناعة الغزل والنسيج الصوفى ودباغة الجلد فى الصين . وها هم الآن قد لجأوا الى ممارسة الصناعات اليدوية والتجارة والنقل اقتداء بأبناء القوميات الاخرى .

وقد ظهر عدد كبير من المسلمين البارزين فى حقول السياسة . ويعتبر السيد شمس الدين (١٢١١ – ١٢٧٩) فذا منهم . وقد عين حاكما اداريا لمقاطعتى شنشى ويونان على التوالى . وكان قد اقام نظام الزراعة الجماعية وقام بانشاء المدارس والمساجد وبناء الكبارى وشق الطرق الجبلية واقامة مراكز البريد وبناء مشاريع الرى وادخال البذور الجديدة والدعاية لاستعمال وسائل الانتاج المتقدمة لتطوير الاقتصاد المحلى . ومازال هذا السياسى العادل والنزيه موضع الاحترام والتقدير لدى اهالى مقاطعة يونان حتى يومنا هذا لما قدمه من خدمات جليلة . ويعتبر ابنه نصر الدين المتوفى سنة ١٢٩٢ وابنه الآخر حسن المتوفى سنة ١٣١٠ وكذلك الرسام قاو كه قونغ والمؤلف الكبير شمس الدين المذكوران آنفا كلهم من الساسة المسلمين المشهورين . وتبعهم هاى روى (١٥١٤ – ١٥٨٧) الحاكم المسلم النزيه الفذ فى تاريخ الصين . وعندما كان يتولى منصب والى مدينة نانجينغ (نانكين) نظم الفلاحين فى مقاومة الكوارث الطبيعية وضرب الطغاة والاشرار لتخفيف عبء الفلاحين وتطوير الانتاج الزراعى . ومازالت مآثره مذكورة بين الناس حتى وقتنا الحاضر .

وبجانب ذلك باشر المسلمون الصينيون النضال الواسع النطاق ضد الحكم الاقطاعى . ففى اواسط القرن الرابع عشر واوائل القرن السابع عشر اشترك المسلمون فى انتفاضتى الفلاحين على

نطاق البلاد . هذا وقد ساهموا فى اسقاط حكم اسرتى يوان ومينغ الاقطاعى . وفى جنوب الصين الغربى انتفض المسلمون من قومية هوى بالاتحاد مع قومية هان والاقليات القومية الاخرى : يى ومياو وباى الخ من اجل مقاومة الحكم الاقطاعى . وفى الوقت نفسه شاركت قومية هوى وويغور القوميات الاخرى فى الانتفاضة ضد الحكم الاقطاعى فى شمال غربى الصين . وتعد هذه الانتفاضات التى اكتسحت مناطق واسعة من البلاد فى اواسط القرن التاسع عشر واستمرت اكثر من عشر سنين جزءا من ثورة مملكة تايبينغ السماوية الفلاحية . من ذلك ان جحافل سليمان دو ون شيو المنتفضة المكونة من الفلاحين وعمال المناجم من قوميات هوى وهان ويى كانت قد استولت على ٥٣ مدينة مما دعم ثورة مملكة تايبينغ السماوية وانزل الضربات القاصمة بالحكم الرجعى لاسرة تشينغ الملكية .

وقد شارك المسلمون الصينيون بقية ابناء الشعب الصينى فى النضال ضد العدوان الامبريالى بدون كلل ولاملل . ففى سنة ١٩٠٠ هب الجنرال المسلم ما فو لو لمقاومة غزو الجيوش المتحدة للدول الثمانى فى ضواحى تيانجين ، وعلى سور بكين حتى استشهد فى ساحة الشرف من اجل الوطن الام . وفى ايام حرب المقاومة ضد اليابان (١٩٣٧ – ١٩٤٥) هب المسلمون على اختلاف قومياتهم فى مقاومة اليابان ودعم الخطوط الامامية . وقد شكلوا منظمات وقوات مسلحة خاصة بهم فى قواعد المقاومة ضد اليابان تحت قيادة الحزب الشيوعى الصينى . اما ما بن تشاى (١٩٠١ – ١٩٤٤) قائد فصيلة قومية هوى فقد خاض ، طوال خمس سنوات ، غمار اكثر من مئة معركة فى جنوب مدينة بكين مما عرض الغزاة اليابانيين للضربات المبرحة . هذا وقد نالت هذه الفصيلة لقب " الجيش الحديدى الذى لا يقهر ولا يشتت شمله " . وبعد ان وقعت امه فى يد العدو الذى طلب منها حمل ابنها على الاستسلام رفضت ذلك رفضا قاطعا مستخفة بتهديد العدو واغرائه حتى استشهدت ببطولة وشهامة . وقد اثنى تشو ده القائد العام لقوات جيش الطريق الثامن عليهما – الام والابن – بأنهما " نموذجان لقوميتى هان وهوى " و" بطلان من الجيلين الام والابن " .

وقد اشترك المسلمون الصينيون فى جميع الحركات الثورية الكبرى التى حدثت فى تاريخ الصين حتى تحرير الصين سنة ١٩٤٩ . مثلا : اشتركت قوه لونغ تشن البطلة المسلمة من قومية هوى مع شو ان لاى رئيس مجلس الدولة الراحل فى تأسيس " دار الوعى " فى مدينة تيانجين كما اشتركت فى حركة ٤ مايو المعروفة عام ١٩١٩ . وكانت قومية ويغور قد اسست مع قوميات شينجيانغ الاخرى الحكم الثورى والقوات المسلحة خلال ما بين عام ١٩٤٤ – ١٩٤٩ فى مناطق ايلى وتاتشنغ وآلتاى برئاسة احمد قاسم (١٩١٤ – ١٩٤٩) ، الامر الذى انزل ضربات شديدة بحكم الكومينتانغ الرجعى والقوى الامبريالية فى شينجيانغ ودعم حرب التحرير فى كل البلاد ، كما دفع تحرير مختلف القوميات فى شينجيانغ .

وعلى ضوء الحديث الشريف : " حب الوطن من الايمان " يرى المسلمون الصينيون ان تطوير الانتاج وبناء البلاد ومقاومة الاضطهاد الاقطاعى والعدوان التوسعى الامبريالى هو من التقاليد المجيدة والواجبات المقدسة لهم .

تبادلات ودية خارجية

وقد اقيمت اواصر الصداقة العميقة بين المسلمين الصينيين والمسلمين الافروآسيويين خلال مجرى التاريخ . وقد قدم المسلمون الصينيون ومسلمو جميع الاقطار مساهماتهم الايجابية فى تبادل الثقافة الشرقية والغربية وتطوير التجارة بين الصين والعرب .

وقد اشرت الى طرق المواصلات القديمة بين الصين والعرب فى مستهل كلمتى . ومعروف ان طريق البر هو طريق الحرير

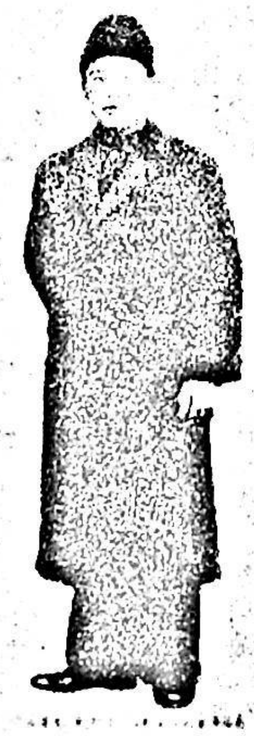

ما بن تشاى فى شبابه ، وفصيلة من قومية هوى كان يقودها ، وقد انزلت ضربات مبرحة بالغزاة اليابانيين ايام حرب مقاومة اليابان .

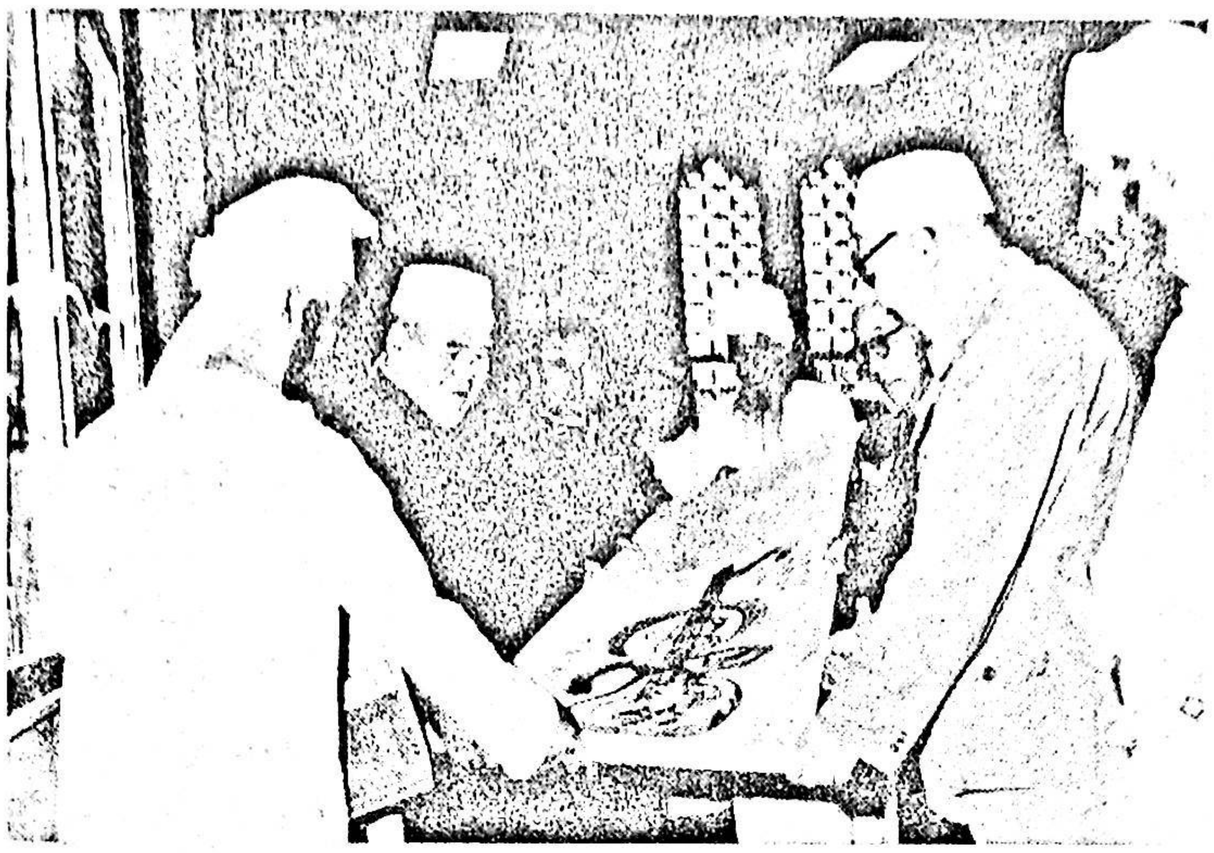

وفد المسلمين الصينيين يزور معهد القضاء فى سلطنة عمان ، وذلك بعد اداء الوفد فريضة الحج فى السنة الماضية .

المشهور فى العالم . ويسرنى ان اسهب فى الحديث عن طريق البحر بما يلى : فى الفترة الممتدة من اواخر القرن السابع الى اواخر القرن الخامس عشر كانت موانئ الصين والاماكن المجاورة لها مثل قوانغتشو وتشيوانتشو وفوتشو ومينغتشو ويانغتشو مرسى لمسلمى مختلف الاقطار والعلماء والرحالة المسلمين الذين كانوا يتقاطرون على الصين عن طريق البحر . وعندما كانت التجارة فى اوج ازدهارها بلغ عدد التجار المسلمين الاجانب المقيمين فى ميناء صينى واحد آلافا حتى عشرات الآلاف من الاشخاص . اما التجار الصينيون بما فيهم المسلمون فقد كانوا قد سافروا الى جنوب شرقى آسيا وسواحل المحيط الهندى للتجارة . وفى القرن الثامن والتاسع الميلادى كان فى بغداد سوق مخصص لبيع بضائع الصين مثل الحرير والاوانى الصينية بينما كان فى مدن تشانغآن وقوانغتشو ويانغتشو اسواق خاصة لبيع منتجات العرب والفرس . وفى القرن الرابع عشر عندما كان الرحالة العربى ابن بطوطة يتحدث عن احوال العرب فى قوانغتشو قال : ان قوانغتشو " اكبر مدينة فى العالم " ولها " اجمل سوق فى الدنيا " . وحين زيارته لتشيوانتشو اعتبرها " مركز التجارة العالمى " . ويعرف من مدوناته ان للتجار العرب ولعا بجمع الاوانى الصينية والخزفية والاحجار الكريمة لنقلها الى الهند واليمن . وطوال الفترة التى تتراوح بين ثمانية وتسعة قرون كان الصينيون يستوردون من الخارج العطريات والعقاقير والسكر والجوخ والعاج وقرن الكركدن والمرجان واللؤلؤ والكهرمان بينما يصدرون الى الخارج الحرير والحرير الرقيق والسندس والدمقش والشاى والاوانى الخزفية والجمالكية والاوانى الذهبية والفضية والمسك والادوية الصينية الخ . وفى هذه الفترة بالذات نقل المسلمون ما اخترعه الصينيون من صناعة الورق والبوصلة والبارود الى الاقطار الاوربية .

وفى قديم الزمان زار كثير من الرحالة العرب الصين بل وخلفوا وراءهم مذكرات سياحية . من ذلك ان سليمان التاجر العربى قد ابحر فى اواسط القرن التاسع الى الصين عبر شبه قارة الهند والبنغال وباكستان . وبعد عودته الى وطنه دون مذكراته السياحية سنة ٨٥١ م بعنوان « سلسلة التواريخ » . وبعد وقت قصير من ذلك اضاف ابو زيد حسن بعض المحتويات الى الكتاب . وكان هذا اول كتاب تذكر فيه احوال الصين استنادا الى مشاهدات العرب فى الصين . وفى القرن الرابع عشر غادر الرحال العربى ابن بطوطة شمال افريقيا الى الصين . وقد ترك اثره فى بكين وتشيوانتشو وقوانغتشو كما دون فى مذكراته ما شاهده من احوال التجار المسلمين الافريقيين فى الصين واحوال مجتمع الصين واقتصادها وعاداتها وتجارتها وصناعتها الحرفية ومناظرها الطبيعية وجغرافيتها .

وجدير بالذكر ان البحار تشنغ خه المشهور فى العالم هو من مسلمى مقاطعة يوننان من قومية هوى . وقد سافر جده وابوه الى مكة لاداة فريضة الحج . وفى سنة ١٤٠٥ امرته حكومة اسرة مينغ بالابحار على رأس اسطول ضخم يتألف من ٦٢ سفينة (يبلغ طول كل سفينة حوالى ١٥٠ مترا وعرضها حوالى ٦٠ مترا) ومن ٢٧٨٠٠ بحار . وفى فترة ٢٨ سنة من ١٤٠٥ – ١٤٣٣ سبق لتشنغ خه ان قام بسبع رحلات زار خلالها ٣٥ من الاقطار الافروآسيوية . انه اول من وصل الى جنوب خط الاستواء على سواحل افريقيا الشرقية . وقد سبق تشنغ خه البحار كولومبس بنصف قرن ونيف . علما بأن اسطوله يفوق الاسطول الغربى حوالى ٢٠ مرة من حيث عدد سفنه . ويعتبر ذلك حدثا فذا فى تاريخ الابحار .

وقد وصل تشنغ خه الى كثير من اقطار ومناطق المسلمين مثل ماليزيا ، واندونيسيا ، وشبه قارة الهند والبنغال وباكستان ، وايران ، ومالديف ، وظفار وعدن وجدة ومكة ، كما دخل مضيق هرمز فى خليج عمان وكذلك مقديشيو وبوراوا وجيوب ومالين الخ . وقد وصل الى مكة فى رحلته السابعة لاداء فريضة الحج . وكان لرحلات تشنغ خه اثرها فى تعزيز روابط الصداقة بين الشعب الصينى وشعوب آسيا وافريقيا وبين المسلمين ، وفى دفع تبادلات الثقافة والاقتصاد وتطوير المواصلات بين

الصين والدول الاخرى . اما ما خوان وفى شين وقونغ تشن الذين كانوا يرافقون تشنغ خه فى رحلاته فقد كتبوا ، كل على حدة ، كتاب « مشاهدات فى العالم » وكتاب « مشاهدات متفرقة » وكتاب « مذكرات حول الدول الاجنبية » . وتعتبر هذه المؤلفات من اهم الوثائق لبحث العلاقات الودية بين الصين ودول آسيا وافريقيا فى ذلك العهد .

لقد كان عدوان المستعمرين والامبرياليين على الشرق حائلا دون تبادل الزيارات الودية بين المسلمين الصينيين والمسلمين فى الدول الاخرى ، ولكن هذه الزيارات لم تنقطع تماما . وبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية واستقلال دول آسيا وافريقيا بالتتابع اعيدت هذه الصداقة التقليدية الى مجراها الطبيعى بل ودخلت مرحلة جديدة . وفى سنة ١٩٥٣ اسست الجمعية الاسلامية الصينية التى نظمت ، على التوالى ، وفود الحج لاداء فريضة الحج . وقد قوبلت هذه الوفود بالحفاوة الودية من قبل المملكة العربية السعودية حكومة وشعبا . ومن عادة وفود الحج الصينية ان تزور ، بعد اداء فريضة الحج ، بعض الدول الاسلامية حاملة معها الصداقة العميقة نحو الشعوب والمسلمين لهذه الدول . وقد توجهت وفود الحج الصينية الى قرابة ثلاثين قطرا للزيارة

حتى يومنا هذا . وما عدا ذلك ظلت هذه الجمعية تدعو وفود الدول الاسلامية وشخصياتها الدينية المشهورة الى زيارة الصين وكانت تستضيفها .

وتطلعا الى المستقبل نجد ان لنا افقا اكثر اشراقا . وكما عرفتم – ايها الاخوان والاصدقاء – اننا قد بدأنا المسيرة الطويلة الجديدة لتحقيق البناء الاشتراكى العصرى . وها نحن المسلمين الصينيين اليوم نبذل قصارانا جنبا الى جنب مع ابناء القوميات الاخرى من اجل تطوير الاقتصاد والثقافة والعلوم والتعليم فى بلادنا . وبفضل تطبيق سياسة المساواة بين القوميات وسياسة حرية الاعتقاد الدينى اللتين نص عليهما الدستور الصينى فقد شق مجال واسع لابداء المسلمين الصينيين مواهبهم فى الابحاث العلمية . انهم سوف يزيدون من دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه وفلسفة الاسلام ، وسوف يتعمقون فى بحث تاريخ القوميات المختلفة وثقافتها وتاريخ الاسلام الصينى والعالمى وبحث تطورات الفكر الاسلامى مع ايلاء الاهتمام باعداد الاكفاء فى هذه الحقول . وسوف يبذلون جهودهم لتقديم مساهمات جديدة فى تنمية الصداقة والتبادل العلمى والثقافى بين المسلمين من مختلف الاقطار وزيادة الاتصالات الودية بين الشعب الصينى وشعوب آسيا وافريقيا، وبين المسلمين من مختلف الاقطار يوما بعد يوم.